# إذابة المصنوعات الفضية الإسلامية

إن إذابة المصنوعات الفضية
هرة عالمية. ففي الغرب كما في
سرق يصعب الحصول على تحف
سية قديمة وأثرية. وحتى تلك التي
ود إلى القرن «١٠هـ / ١٦م» مثلا
ها ليست نادرة فحسب وإنما باهظة
من إن وجدت.

د. سعد الجادر

ونتيجة دورات من الإذابة والصهر كان أغلب الانتاج الصياغي الغربي في القرن ١٠هـ / ١٦م يوظف لخدمة الكنيسة، ثم تغير الأمر بعد اكتشاف كميات ضخمة من معدن الفضة في الأمريكتين، حيث تصاعد تصنيعها بسرعة: ففي ايطاليا كانت الفترة بين القرن ١٠هـ / نهاية القرن ١٦م والقرن ١٢هـ / نهاية القرن ١٨م ثرية بالنسبة إلى انتاج المصنوعات الفضية، ومن أهم مراكز الصياغة كانت فينسيا وروما وتورينو وفلورنسا وجنوا، وكانت بعض مشغولاتها تصدر إلى مناطق شمال افريقيا. وكذلك الحال بالنسبة إلى بعض المدن الفرنسية والهولندية خلال القرنين ١١ ـ ١٢هـ / ١٧ ـ ١٨م. أما في انكلترا فقد كان انتاج الفضة ضعيفا في فترة نهاية الحرب الأهلية (١٦٤٢ ـ ١٦٤٨م)، لأن الدمار الذي صاحب الحرب قاد إلى تذويب منتجاتها، حتى صعب على الصاغة الحصول على طلبات جديدة، تتيح لهم الاستمرار في العمل. غير أن صناعة الفضيات سرعان ما نهضت في انكلترا بعد انتهاء الحرب الأهلية وخاصة منذ عام ١٦٦٠م. وفي القرن ١١هـ / نهاية القرن ١٧م بدأت اساليب الصياغة الانجليزية تسري إلى مستعمراتها.

أما بالنسبة للمصنوعات الفضية الإسلامية فقد كانت اذابتها كارثة مستمرة تستهدف التراث التاريخي، وهي عملية تخريب مؤلمة مهما كانت أسبابها عفوية أم مقصودة.

تأخذ عملية الاذابة في الأقاليم الإسلامية عدة اتجاهات منها: تذويب المسكوكات لإنتاج الحلي، وكسر المصنوعات الفضية القديمة لعمل أخرى جديدة تحت ضغط الموضات الحديثة أو لسك العملة لأسباب اقتصادية وعسكرية أو لتذويب التراث الفضي الإسلامي قصد محوه وتدميره. وهكذا تتغير هيئة الفضة باستمرار تبعا للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كالحروب والغزوات أو الجفاف والمجاعة أو القانون والأعراف الاجتماعية. فتكون على شكل سبائك أو حلي وتحف أو مسكوكات وعملات... لذا فان ما وصلنا من تحف صياغية اسلامية مقارنة حتى بالخزف كمادة هشة وسهلة الكسر قليل ونادر. ونتيجة لذلك يصعب تتبع مراحل تطور الفنون الصياغية الإسلامية بسبب فقدان

حلقات كثيرة في مسيرة تطورها. وهناك في التاريخ أمثلة متعددة ومتنوعة لظاهرة اذابة المصوغات التي عرفتها مختلف الحضارات الانسانية:

- فعندما دارت رحى الحرب بين أثينا واسبرطا عام ٤٠٦ق.م. حصلت أزمة في المعادن، فاستولت الحكومة على ممتلكات الأغنياء، وما في المعابد من مصنوعات ومسكوكات،... حتى التماثيل الذهبية صهرت وانفقت في سبيل تلك الحرب.

- ويذكر أن ملوك الاغريق كانوا يستخدمون أثاثا من الخشب المصفح بألواح الفضة المنقوشة والمطروقة التي كانوا يذوبونها في زمن الحرب ليسكوا منها العملات. وبنفس هذه الطريقة وللسبب ذاته اختفى أثاث القصور الفرنسية المصنوع من الفضة.

- وحوالي عام ٧٠٠م لم يكن هناك كميات كافية من الذهب في الدول الأوربية لضمان قاعدة الاقتصاد القائمة على العملة الذهبية. ونتيجة لذلك لجأ الميروفنجيون في فرنسا إلى ضرب عملتهم من الذهب إلى الفضة. واستمرت ندرة الذهب في أوربا حتى القرن ٦هـ / ١٢م ونتيجة لذلك شاعت المسكوكات والحلي الفضية بدلاً من الذهبية. وقد سنت ايطاليا واسبانيا في القرون الوسطى قوانين تمنع الناس من التزين بالمصوغات والحلي الذهبية والفضية والأحجار الكريمة واقتصار ذلك على الملكات والأميرات. وذلك لاحتياج الدولة إلى هذه الثروة لأغراض النقد والتجارة.
يذكر المقريزي عن العهد المملوكي حينما حل بالبلاد قحط عام في المعادن الثمينة، هجرت الملابس المنسوجة بخيوط الذهب والفضة حيث كانت النساء يرتدين «الطواقي» والملابس المزينة بزخارف ضخمة من الذهب والفضة.

- وعند صعود نجم السعديين كان من ردود فعل الاسبان والبرتغاليين حظر التجارة مع الموانىء السعدية وتحريم المتاجرة بالذهب والفضة والسلاح الاّ على المسيحيين. وصدر مرسوم خاص مؤرخ في ٢٩ مارس ١٥٤٩م يقضي بمنع السعديين من الاستفادة من تلك المواد واستخدامها في الانفاق على الحرب ضدّ المحتلين الغزاة. فكانت الحلي تذوب لمقاومة المستعمرين. بينما سرعان ما توفرت المعادن النفيسة في المغرب بكثرة في أعقاب فتح المنصور الذهبي للسودان مما ساعد على ازدهار وتطور مصنوعاتها وصياغاتها.

ـ وكانت المصنوعات تذوب بعد فوات موضتها. فمثلا كان أغلب أبازيم الأحذية مشغوله من الفضة التي كانت تصنع في انكلترا في القرن ١٢هـ / ١٨م ذوبت بعد نفاذ موضتها ولم يعد يقتنيها الناس.

ـ وكان في العراق وسوريا حتى القرن ١٣هـ / ١٩م نسيج مزين بأسلاك من الفضة أو الفضة المذهبة أو الذهب وكان البعض يحرق بقايا هذه التحف النسجية للاستفادة مما تحويه من معدن نفيس.

ـ وكانت ادارات «الانتداب الفرنسي » تصدر بين حين وآخر قوانين أدت إلى تذويب المصنوعات من المعادن النفيسة لمختلف الأغراض، منها مراقبة الفرنسيين الصارمة لتصنيع الحلي مستخدمين لذلك موظفين رسميين يجوبون أسواق الصاغة، كما حصل بتونس. فكانوا يفرضون ضرائب خاصة على الحلي، ويمنعون اعادة بيع التحفة الفضية التي لا تحمل دمغة الضريبة، ولكنهم لا يمانعون من تذويبها. وكان لهذا الاجراء القاسي نتائج منها: ارتفاع عوائد الخزينة الفرنسية من الضرائب المفروضة على بيع الفضة بعد وسمها. والقضاء على كميات ضخمة من التراث الأصيل في محاولة لتفكيك عرى الارتباط بين المواطنين وتراثهم بغية تصدير منتجات الغزاة إلى بلدان المغرب.

ـ وحدث كذلك أن كان يدعو أحد الحكام إلى التقشف في الزينة يسانده رجال الدين، والناس على دين ملوكهم وحكامهم، فينحسر عمل الصاغة ويذوب التراث أو يستعد حاكم آخر لشن حرب تتطلب أموالا تصرف على الجند والمؤونة والسلاح. فيجمع الذهب والفضة ليسكها نقودا ينفقها في متطلبات تلك الحرب والسلاح.

**ومن الدوافع الاقتصادية للتذويب كسر الصاغة للعملات الفضية ـ لأغراض صياغة الحلي ـ عند قلة عرض الفضة في الأسواق أو في وقت ارتفاع أسعارها العالمية. فتدر اذابة العملة على الصائغ فائدة مالية. لأن حصيلة الاذابة أقل تكلفة**

**من شراء السبائك. فبالرغم من أن عيار الفضة في المسكوكات دون الاسترليني ، غير أن كمية الفضة فيها أعلى من قيمتها الشرائية. فتسك الدول نقوداً جديدة تكون كمية الفضة فيها أقل من سابقتها لكن قوتها الشرائية تبقى ثابتة.**

ويلعب المواطنون دورهم في هذا الصدد. فالمرأة التي كنزت قطعا نقدية قديمة تقدمها إلى الصائغ لتحويلها إلى حلي. ومما يشجع الصاغة والمستهلكين لتذويب الحلي القديمة (وخاصة الثقيلة منها) هو ثبات كتلة المعدن الفضي المتوفر في محيط عمل الصائغ أو مجموعة الصاغة نتيجة الانعزال والاكتفاء الذاتي. فيصبح تذويب كتلة الفضة القائمة على شكل حلي وصياغة أخرى حديثة دوريا هو المكسب الوحيد للصائغ لضمان استمرار عمله. هذا من ناحية الصائغ. أما من جهة المالك فانه بإذابة ما يحرزه من حلي قديمة لصنع مصاغ يتجاوب ومتطلبات الموضة الحديثة فهو لا يخسر غير اجور العمل. أي أنه لا يدفع ثمنها عينيا باهظا لشراء معدن الفضة بل يستفيد من مادة الفضة في الحلي القديمة. فان جل الناس لا يقتني المصنوعات الفضية من باب الحفاظ على الفنون والتراث الوطني باعتبارها تحفا فنية أثرية بل لأغراض تزيينية ثقة بهذا المعدن النفيس الذي يمكن بيعه أو كسره وإذابته وإعادة صياغته تبعا لما يتجدد من موضة دون أن تفقد شيئا من وزنها. وربما لأن الفضة معدن لا يبلى، ولا يفقد من وزنه نتيجة الاذابة أكثر من حوالي ١٪. ومما يذكر بهذا الصدد ما حدث خلال الحرب العالمية الثانية حيث قررت الولايات المتحدة إنشاء مركز للبحوث الذرية وكانت الحاجة ماسه إلى موصلات كهربائية ثقيلة. فتم سحب سبائك الفضة من وزارة الخزانة وصنعت منها الموصلات. وبعد انتهاء الحرب ذوبت الفضة في الموصلات الكهربائية وصبت في سبائك ظهر عند فحصها بأنها لم تفقد سوى جزء واحد من المائة فقط بعد سبع سنوات من الاستخدام.

وهناك عوامل اجتماعية وجمالية وراء تذويب التحف القديمة أساسها القيم والتقاليد والأعراف السائدة في المجتمعات الإسلامية، مثل عادة بيع مصوغات المرأة بعد وفاتها. وحمل الفتيات والنساء لسوار أو خلخال أو خاتم فترة من الزمن وخلال نموها أو تبدل هيئة جسمها تضيق ولا تستطيع التخلص منها الا بالتوجه إلى دكان الصائغ لكسرها ثم إذابتها.

اضافة إلى أن السكان وخاصة في القرى والمدن الصغيرة يفضلون الحلي «الجديدة» ذات البريق اللماع ويعافون القديمة السوداء رغم جودتها، فالموضة اذا استشرت تخضع النساء لها مسايرة لروح العصر، فهذه جدة أهدت لحفيدتها سوارا قديما أخذته الحفيدة إلى الصائغ، فذوبه وصنع من فضته عدة أساور رقيقة خفيفة «وعلي الموضة».

وفي الهند تصنع الحلي الفضية والذهبية من عيار عال، إلى درجة أنها من الطراوة بحيث لا يمكن حملها طويلا، وقد يكون هذا أمراً مبرجاً اذا علمنا بأن نساء البنغال اعتدن على اعادة صياغة حليهن، تبعا لما يتجد من موضات خاصة وأن اليد العاملة رخيصة ولا تتعدى ٥ ـ ١٠٪ من سعر المصاغ في حين قد تصل إلى ٨٠ ـ ١٠٠٪ في أوربا وأمريكا.

وبجانب ذلك فان وراء الإذابة أفعال تخريبية تهدف إلى محو التراث الصياغي الإسلامي حيث لا زالت الحلي والتحف الفضية تذوب في الخرطوم وبغداد والقاهرة وعمان وأبو ظبي ودكا وداكار. . . وتصنع منها السبائك التي يهرب بعضها إلى لندن وزيوريخ وفرانكفورت. وفي روايه لأحد بائعي الفضة في أبو ظبي بأن أحدالأوربيينجمع كميات كبيرة من المصوغات والحلي اليمانية والعمانية والمحلية وذوبها وأرسلها إلى أوربا بشكل قوالب فضية.

وهناك من الصاغة الماهرين والمبدعين، الذين يهدفون إلى بقاء مصوغاتهم عبر الزمن آثارا خالدة يستخدمون فضة منخفضة العيار تنتج عن اضافة نسبة بسيطة من الفضة إلى معادن أخرى غير ثمينة كالنحاس والقصدير والنيكل والزنك وغيره، فينتج عن ذلك تركيبا معدنيا أقل ثمنا يحفظ أعمالهم البديعة ولا يعرضها لإغراء «الكسر» والإذابة لاحقا.

ويحدث أحيانا أن تكون هناك سلسلة من التفاعلات الناجمة عن اذابة المصنوعات الفضية. وكان من جملة ما يصاحبها فقدان تحف نادرة ليس بوسع الصاغة لاحقا صناعة مثيل لها. وقد عانت الفضة الاسلامية من هذه الظاهرة حتى فقد جل روائعها.

ومثل ذلك ما حصل في انكلترا، حيث ذوبت كميات ضخمة من المصنوعات الفضية خلال الحرب الأهلية في عهد كرومويل لسك العملة اللازمة سواء لدفع مرتبات الجيش أم للأغراض التجارية، لذلك فان الفضة التي تعود إلى ذلك العهد، أي قبيل تنظيم المملكة

في عام ١٦٦٠م وتنصيب شارل الأول على العرش تعد نادرة جدا، حتى عادت موضة استخدام المصنوعات الفضية مرة أخرى في عهد شارل الثاني وعظم الاقبال عليها. ولذلك اتجه الصاغة إلى تذويب المسكوكات وصيروها حليا وصحافا، وكان لذلك أثر سلبي على الاقتصاد. اذا تضاءلت السيولة النقدية في الأسواق. واصبحت نسبة الفضة في السبيكة الاسترلينية التي تنتج منها المصنوعات الفضية أعلى مما هو عليه في المسكوكات النقدية المطروحة في الأسواق وحينذاك تم استدعاء المواطنين لبيع ممتلكاتهم من المصنوعات الفضية القديمة ذات العيار الاسترليني لتذويبها...

فعندما تنخفض أسعار الذهب والفضة يقبل الناس على اقتناء المصوغات أكثر من سعيهم إلى بيعها. ويحدث العكس عند ارتفاع اسعارها حيث يميل الناس إلى بيع الحلي للاستفادة من ارتفاع أسعارها.

وفي المغرب يقتني بعض الصاغة والتجار كل ما تقع عليه أيديهم من مصنوعات فضية اسلامية في فترات هبوط أسعارها ويكدسونها عندهم ثم يذوبونها أثناء ارتفاع سعر الفضة.

وثمة مثل آخر معاصر:

فنتيجة لارتفاع أسعار المعادن النفيسة الناجم عن هبوط قيمة الدولار وثقة الناس بالمعدن النفيس، قل الإقبال على شرائها وزاد بيعها من قبل الأهالي فكثر العرض وقل الطلب. لكن ارتفعت أسعار الاذابة، فنفذت بسبب ذلك ثروة من كنوز المصنوعات الفضية لا تقدر بثمن في الفترة عام ١٩٧٩م - وحتى عام ١٩٨١م. وبهذا الصدد علقت أحدى الصحف:

«أدّى التصاعد الجنوبي لأسعار الذهب والفضة إلى اتجاه عدد كبير من الناس لصهر ما يملكون من مقتنيات وتحف فنية قديمة يعود تاريخ صنعها إلى مئات السنين بهدف الحصول على مزيد من الأرباح. وأفادت مؤسسات تجارية في أسواق السبائك اللندنية أن ألوفا من الناس في بريطانيا يبيعون يوميا ما لديهم من مواد ذهبية وفضية تبدأ من الأسنان المحشوة بالذهب والساعات وعلب السكاير المذهبة وخواتم الزواج وتنتهي بالتحف الفنية القديمة

ذات المستوى الرفيع والتي يصعب الحصول عليها في الوقت الحاضر.

وقالت إن الاندفاع الكبير للصهر والبيع بدأ مطلع العام الحالي حين سجل المعدن الأصفر النفيس رقما قياسيا جديدا في أسواق السبائك وصل إلى ٦٠٠ دولار ثم قفز إلى ٧٠٠ دولار للأوقية الواحدة. وأعربت تلك المؤسسات عن أسفها لتدمير ألوف الأوقيات من المواد الذهبية والفضية الثمينة بهذه الطريقة التي أثارت تذمرا واسعا لدى المسؤولين في المتاحف وجامعي التحف الفنية لأن الكثير من الأعمال النادرة التي صنعها فنانون مهرة قبل مئات السنين آخذة في الزوال.

## صهر السبائك القديمة:

وذكرت احدى المؤسسات أنها كانت تخصص ثلاثة أيام في الأسبوع لصهر الأعمال الذهبية والفضية القديمة، الّا أنها وبعد الاقبال الكبير على أعمال الصهر اضطرت لزيادتها بحيث أصبحت خمسة أيام هو كل أيام العمل الأسبوعي. وقال إنها تتردد في تدمير هذه التحف عن طريق صهرها ألا أن بعض الزبائن يصرون على ذلك بغية الاستفادة من ثمنها، فعلى سبيل المثال طلب أحدهم صهر ينية فضية من طراز سوفيتي مصنوعة بشكل فني رائع ويعود تاريخها إلى مئات السنين».

مما تقدم يمكن أن نتصور مقدار الضرر الذي تم إلحاقه بالفنون الصياغية الإسلامية وتراثها الفضي كماً ونوعاً. اذ كانت موجات الاذابة تمحو اساليب صياغية فريدة ومتميزة من حيث الصورة الفنية والجودة في التقنية والتجديد والابداع وحسن الذوق ازدهرت في أوقات السلم والاستقرار والحرية الفكرية واندثرت بعد أن جرفتها عوامل الكسر والتذويب. وهذا يفسر ندرة الفضة الإسلامية القديمة وقلة ما يعثر عليه في الحفريات الأثرية.

**ربما تكون هذه الظاهرة عامة في الفنون الصياغية العالمية. الّا أن الاذابة محسوسة النتائج أكثر في الفضة الإسلامية لكثرة ما صنع بالفضة وقلة ما سلم منها. فالفضة من أهم ابداعات الحضارة الإسلامية نسبة لغيرها من فنون وحضارات. ومع ذلك، وبسبب كثرة**

الانتاج فقد سلمت نماذج كثيرة من المصنوعات والحلي الفضية تعود إلى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. حيث يمثل كثير من نماذجها وأشكالها ومفرداتها الصياغية استمراراً لما كان سائدا في العالم الإسلامي منذ فجره وعبر مختلف عهوده.

## • المراجع •

- محمد فتحي عوض الله معادن الزينه سلسلة إقرأ ٤٧٥ مايو ١٩٨٢م دار المعارف. القاهرة. مصر.

— Saad Al-Jadir
Arab and Islamic Silver
Stacey International, London - 1982.

— Encyclopedia Britannica - 1978.

— Family 2000

The Caxton Publishing Company Limited, 1974.

pp.918-919. pp.130-132. p.795. pp.142-145.